سلسلة الدروس (١٦)
١٤٤٨هـ

شرح

الصحيح المسند

من الشمائل المحمدية

للشيخة
أم عبد الله بنت الشيخ مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

دار الوداعة

بسم الله الرحمن الرحيم

❐أسئلة الدرس (١٤)❐

١. من الذي قال عنه النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يبعث أمة وحده؟

زيد بن عمرو بن نفيل العدوي.

٢. هل زيد بن عمرو بن نفيل صحابي؟

ليس بصاحبي؛ لأنه توفي قبل المبعث بخمس سنوات.

٣. ماذا كان ينكر زيد بن عمرو على قريش؟

ينكر عليهم أكل ما ذبح على الأنصاب، وكان ينكر عليهم ذبائحهم، وكان يقول: (الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ).

٤. ومن الأشياء التي أنكرها أيضًا؟

ما جاء عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما، قَالَتْ: رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الكَعْبَةِ يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، وَكَانَ يُحْيِي المَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ، لاَ تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس(١٥)

قَالَت شَيخَتُنَا أُمُّ عَبدِاللهِ بِنتُ الشَّيخِ مُقبِلٍ غَفَرَ اللهُ لَهَا وَلِوَالِدَيهَا:

ي-مَحَبَّتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِلْخَلَاءِ وَتَعَبُّدُهُ لِرَبِّهِ بِغَارِ حِرَاءٍ قَبْلَ نُزُولِ الوَحْيِ:

١-قال الإمام البخاري رحمه الله (٤٩٥٤): حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. ح وحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مَرْوَانَ(١)، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رِزْمَةَ، أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِحٍ سَلْمَوَيْهِ(٢)، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ شِهَابٍ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ

---

(١) شيخ ثاني للإمام البخاري في هذا السند.

(٢)أبو صالح سلمويه اسمه سليمان بن صالح الليثي المروزي يلقب سلمويه، ويقال: اسم أبيه داود، وهو من طبقة الراوي عنه من حيث الرواية إلا أنه تقدمت وفاته، وكان من أخصاء عبدالله بن المبارك والمكثرين عنه، وقد أدركه البخاري بالسن؛ لأنه مات سنة عشر ومائتين، وما له أيضًا في البخاري سوى هذا الحديث كما في «فتح الباري» للحافظ رحمه الله.

لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ (٣)، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ (٤) فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ،-قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ-قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ. الحديث.

---

(٣)قال النووي ﷺ في شرح هذا الحديث: أَمَّا الْخَلَاءُ فَمَمْدُودٌ، وَهُوَ الْخَلْوَةُ، وَهِيَ شَأْنُ الصَّالِحِينَ، وَعِبَادِ اللَّهِ الْعَارِفِينَ.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ ﷺ: حُبِّبَتِ الْعُزْلَةُ إِلَيْهِ ﷺ؛ لِأَنَّ مَعَهَا فَرَاغَ الْقَلْبِ، وَهِيَ مُعِينَةٌ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِهَا يَنْقَطِعُ عَنْ مَأْلُوفَاتِ الْبَشَرِ، وَيَتَخَشَّعُ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»(٣/ ٥): إِنَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْخَلَاءَ وَالِانْفِرَادَ عَنْ قَوْمِهِ؛ لِمَا يَرَاهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالسُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ، وَقَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لِلْخَلْوَةِ عِنْدَ مُقَارَبَةِ إِيحَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

(٤) قال ابن الأثير في «النهاية»(١/ ٣٧٦): هُوَ بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ: جبل مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ مَعْرُوفٌ. ومنهم مَنْ يُؤنثه وَلَا يَصْرِفه. قَالَ الخَطّابي: وَكَثِيرٌ مِنَ المُحَدّثين يغْلَطُون فِيهِ فيفْتَحون حَاءَهُ، ويَقْصُرُونَهُ ويُمِيلونه، وَلَا يَجُوزُ إمالتُه؛ لأنَّ الرَّاءَ قَبْلَ الْأَلِفِ مَفْتوحَة، كَمَا لَا تَجُوز إِمَالَةُ رَاشد ورَافِع.

وفي «القاموس»، مع شرحه «تاج العروس»(٣٧/ ٤٢٠) حراء: يُصْرَفُ ويُمْنَعُ.

قالَ سِيبَوَيْه: مِنْهُم مَنْ يَصْرِفُه، وَمِنْهُم مَنْ لَا يَصْرِفه يَجْعَله اسمًا للبقْعَةِ.

وللحديث تتمة سيكون هناك إن شاء الله بعد هذا الدرس.

١-باب قوله ﷻ عن نبيِّهِ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩](٥). وقوله ﷻ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤](٦). وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢](٧).

٢-قال الإمام البخاري رحمه الله (٧٩): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِاللهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ(٨)، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ

---

(٥){رَبَّنَا} منادي بحرف نداء محذوف.

(وَابْعَثْ)البعث لغة: التحريك والإثارة، والمراد هنا: وأرسل.

(فِيهِمْ) قال أبو حيان في «البحر المحيط»(٦٢٥): وَالضَّمِيرُ فِي فِيهِمْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الذُّرِّيَّةِ، وَيُحْتَمَلَ أَنْ يَعُودَ عَلَى أُمَّةً مُسْلِمَةً، ويحتمل أن يعود على أَهْلِ مَكَّةَ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ. اهـ.

(وَيُؤَيِّدُهُ)أي: ويؤيد الاحتمال الأخير هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

والأميون هم: العرب.

(رَسُولًا مِنْهُمْ) أي: من أنفسهم، كما في قوله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير»(١/ ٤٥٢): وَمَعْنَى: {مِنْ أَنْفُسِهِمْ} أَنَّهُ عَرَبِيٌّ مِثْلُهُمْ، وَقِيلَ: بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وَوَجْهُ الْمِنَّةِ عَلَى الْأَوَّلِ: أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ عَنْهُ، وَيَفْهَمُونَ كَلَامَهُ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تُرْجُمَانٍ. وَمَعْنَاهَا عَلَى الثَّانِي: أَنَّهُمْ يَأْنَسُونَ بِهِ بِجَامِعِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَوْ كَانَ مَلَكًا لَمْ يَحْصُلْ كَمَالُ الْأُنْسِ بِهِ؛ لِاخْتِلَافِ الْجِنْسِيَّةِ. اهـ.

فقوله سُبحَانَهُ: (رَسُولًا مِنْهُمْ)أي: من العرب وبلغتهم، أو أن المراد: من البشر، فليس من الجن ولا من الملائكة، والأول هو الصحيح، قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»(١/ ٤٤): وَلَكِنَّهُ يُبَيِّنُ فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْعَرَبُ، وَالرَّسُولَ هُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثم استدل بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]؛ لِأَنَّ الْأُمِّيِّينَ الْعَرَبُ بِالْإِجْمَاعِ، وَالرَّسُولَ الْمَذْكُورَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِجْمَاعًا، وَلَمْ يُبْعَثْ رَسُولٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِلَّا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَحْدَهُ. اهـ.

لكن يشكل على التفسير الأول بأن المراد (منهم) أي: من العرب، أن بعثة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عامة للثقلين، وقد أجاب عنه ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية من «تفسيره» (٨/ ١١٥): وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغُ وَآكَدُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٤]، وَهُوَ ذِكْرٌ لِغَيْرِهِمْ

يَتَذَكَّرُونَ بِهِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢١٤]، وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ لَا يُنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٥٨]، وَقَوْلَهُ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ١٩]، وَقَوْلَهُ إِخْبَارًا عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هُودٍ: ١٧]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عُمُومِ بِعْثَتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ. اهـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في «القول المفيد» (١/ ٤٣٩): لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب. اهـ.

وكما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ» رواه أحمد (١٧٤٠).

وقد ختم إبراهيم عليه السلام دعواته هنا بالدعوة بالهداية والسعادة لهذه الأمة، وذلك بإرسال هذا النبي الكريم، قال تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٦-١٢٩]. فدعا بعدة أمور، ومنها:

الدعاء بالأمن، وعدم الخوف لهذه البلدة (مكة)، وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٧]، وقال سُبحَانَهُ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[التين: ٣]، وهذا خبر والمراد به الأمر، أي: من دخل البلد الحرام وجب أن يؤمَّن من الأذى والعدوان.

قال الشيخ ابن باز ﷺ في «مجموع الفتاوى»(١٧/١٨٧): يعني وجب أن يؤمَّن، وليس المعنى أنه لا يقع فيه أذى لأحد، ولا قتل، بل ذلك قد يقع وإنما المقصود أن الواجب تأمين من دخله، وعدم التعرض له بسوء، وكانت الجاهلية تعرف ذلك، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يؤذيه بشيء حتى يخرج، فهذا البيت العتيق، وهذا الحرم العظيم، جعله الله مثابة للناس وأمنًا. اهـ.

فعلينا أن نفهم المراد بالأدلة في أمان من دخل؛ حتى لا يشكل علينا ما قد يحصل من الأحداث وهذا كثير، ومنه ما ذكر الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»(١١/٦٣) وهو يتكلم عن الباطنية القرامطة: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ تَحَرَّكَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، ثم استفحل أمرهم وتفاقم الحال بهم كما سنذكره، حتى آل بهم الْحَالُ إِلَى أَنْ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَسَفَكُوا دم الحجيج في وسط المسجد حول الكعبة، وَكَسَرُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَاقْتَلَعُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَذَهَبُوا بِهِ إِلَى بِلَادِهِمْ فِي سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُمْ إِلَى سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، فَمَكَثَ غَائِبًا عَنْ مَوْضِعِهِ من البيت ثنتين وعشرين سنة، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، وكل ذلك من ضعف الخليفة وتلاعب الترك بمنصب الخلافة واستيلائهم على البلاد وتشتت الأمر.

وقال الشوكاني ﷺ في «أدب الطلب» (٩٦): أنه قال رَئِيس القرامطة اللعين-لما سفك دِمَاء الْحجَّاج بِالْبَيْتِ الْحَرَام وَفعل بِهِ من الْمُنْكَرَات مَا هُوَ مَعْرُوف-:

وَلَو كَانَ هَذَا الْبَيْت لله رَبنَا... لصب علينا النَّار من فَوْقنَا صبا

لأَنا حجَجنَا حجَّة جَاهِلِيَّة... محللة لم يبْق شرقا وَلَا غربا

ثمَّ قَالَ لمن بَقِي فِي الْحرم سالما من الْقَتْل: يَا حمير أَنْتم تَقولُونَ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٩٦]. اهـ.

ومن أقربها قصة جهيمان (عام ١٤٠٠هـ)، وما حصل فيها من البغي والعدوان في بيت الله الحرام، وسفك الدماء، وقد قيض الله سُبحَانَهُ لهذه البلدة المباركة ولبيته الحرام هذه الدولة السعودية المباركة، وساقها لذلك كما ساق الأنصارَ لإيواء النَّبِيّ ﷺ واختصهم بذلك، كذلك ساق الله ﷻ هذه الدولة السعودية لخدمة بيته الحرام وبلده الأمين وحراستهما، وبذل كل غال ورخيص في راحة ضيوف الرحمن، وتأمينهم عند بيت الله المحرَّم، وفي طرقاتهم ومأواهم أحسن قيام، حتى يرجعوا إلى أوطانهم، بما لا تستطيع أي دولة أن تقوم بذلك، فنقول: اللّٰهم احفظها ورد كيد أعدائها في نحورهم، ونسأل الله أن يرزقها المزيد من التمسك بهذا الدين، فإنه كلما حافظت على دينها زادها الله تمكينًا وقوة وعزة ومهابة في قلوب أعدائها، كما قال ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، والله المستعان.

فهذه الدعوة الأولى الأمن.

والثانية: الأرزاق ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

والختم بالهداية؛ وذلك ببعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد استجاب الله ﷻ هذه الدعوات المباركات، وبارك في مكة، وجعلها آمنة مطمئنة، وفي رخاء، وكما قال ﷻ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]، وبعث فيها نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالرحمة والهداية والسعادة، وهذا هو الذي أشار إليه النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كما روى ابْنُ إِسْحَاقَ كما في «البداية والنهاية» (٢/٢٧٥): من طريق خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ. قَالَ: «نَعَمْ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى عليهما السلام، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» الحديث.

وهذا الحديث سبق معنا.

وقوله سُبحَانَهُ: (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (أنت) ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وهذه الجملة فيها ثلاث مؤكدات: (إنَّ)، وضمير النصب الكاف، وضمير الفصل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مرسل من عند الله، وكما قال الله ﷻ: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ١١]، وقوله سُبحَانَهُ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: ٢].

وفيه الصفات التي جاء بها نبينا: تلاوة آيات الله، وتعليمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، وتزكية الناس من الشركيات والأخلاق المنكرة، وهذا يدل على كمال هذه الشريعة وفضلها.

وفيه: ختم هذه الآية بهذين الاسمين: العزيز، الحكيم.

ورحم الله الشيخ ابن عثيمين، فقد ذكر في سورة البقرة مناسبة ختم الآية بهذين الاسمين، وقال: مناسبة العزة، والحكمة لبعث الرسول؛ وهي ظاهرة جدًّا؛ لأن ما يجيء به الرسول كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨٠]، للمؤمنين عربًا كانوا، أو عجمًا؛ من كان مؤمنًا بالله ﷻ قائمًا بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان، والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة. اهـ.

فنستفيد: أن ما جاء به النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الوحي والخير كله حكم، فليس فيه شيء عبث، هذا بالنسبة لحكيم.

وأن من تمسك بما جاء به النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فإن الله يعزه، ومن تخلى عنه كان ذليلًا، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠]، ويفوت أصحاب المعاصي من المؤمنين من العزة بقدر تخليهم عن الأوامر والنواهي ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، والآية وإن كانت في الكفار لكن فيها دليل أن المعاصي ذلة.

(٦) (لَقَدْ)اللام واقعة في جواب قسم مقدر، تقديره: والله.

وهذه الآية مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، اللام الواقعة في جواب القسم، و(قد).

وفي هذه الآية:

نعمة إرسال الرسل إلى الناس؛ لأنه لا يعرف ما يضره ولا ينفعه في دينه ومعاده إلا بالشرع، قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»(١٩/٩٩): وَأَشْرَفِ مِنَّةٍ عَلَيْهِمْ: أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ

رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ، بَلْ أَشَرَّ حَالًا مِنْهَا، فَمَنْ قَبِلَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا فَهُوَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَخَرَجَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ، وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ.

وفيه: تعداد الله ﷻ النعم على هذه الأمة: ببعثة هذا النبي الكريم، وكونه منا، أي: من العرب، يتلو آيات الله بعد أن كان الناس في جاهلية جهلاء، تزكيته لأمته من الشرك والكفر وأدناس المعاصي، تعليم الكتاب والحكمة، ختم الآية بحال الناس قبل البعثة وأنهم كانوا في ضلال مبين، وكما قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للأنصار: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي» رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) عَنْ عَبْدِالله بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ.

وقوله سُبحَانَهُ: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)} (إن) مخففة من الثقيلة، (اللام) فارقة بين النفي والإثبات، نظير مثال: (إن زيد لمنطلق، إن زيد منطلق) الأولى مخففة من الثقيلة؛ بدليل وجود اللام في الخبر، فالجملة إثبات، أما (إن زيد منطلق) (إن) نافية ينفي انطلاق زيد.

(٧)تقدم أن الأميين هم العرب، قال ابن كثير ﷺ في تفسير هذه الآية (٨/ ١١٥): الْأُمِّيُّونَ هُمُ: الْعَرَبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣١٤]. اهـ.

ونستفيد: أن من طرق تفسير القرآن أن يفسر بالقرآن، فهنا فسر الذي في سورة الجمعة بما في سورة آل عمران: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ(٩) الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ

وفي هذه الآيات السابقة: الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو شهادة أن محمدًا رسول الله. وهو كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله: يقتضي طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، وَاجتِنَابُ مَا عَنهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وفيه: أن من نعم الله العظيمة كون هذا النبي المرسل علينا منَّا.

وفيه: رد على الشيعة الذين يقولون: يجب على الله إرسال الرسال الرسل، وأهل السنة يقولون: هذا إنما هو فضل من الله ومنة، ورحمة، كما يدل لذلك هذه الآيات الكريمات وما في معناها، وأنه لا يجب على الله شيء، فإنه هو الحاكم الموجب على عباده. وينظر «مختصر التحفة الاثنا عشرية»(٩٩).

(٨) إسناد هذا الحديث مسلسل بالكوفيين، وهذا من طرائف الإسناد.

(٩)«الكلأ والعشب» العشب من ذكر الخاص بعد العام؛ لأن الكلأ يطلق على النبات الرطب واليابس معا، والعشب للرطب فقط.

«أجادب» جمع جدب بفتح الدال المهملة على غير قياس، وهي الأرض الصلبة التي لا يَنْضُبُ منها الماء.

«قيعان» بكسر القاف جمع قاع، وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت. «فتح الباري».

مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» (١٠).

---

(١٠) قال ابن القيم ﷺ في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٤٧): شبه ﷺ العلم والهدى الذي جاء به بالغيث؛ لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد، فإنها بالعلم والمطر.

وشبه القلوب بالأرض التي يقع عليها المطر؛ لأنها المحلُّ الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته، ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام، بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه، واستخراج حكمه وفوائده.

أحدها: أهل الحفظ والفهم، الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحِكَمِ والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط، فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء، وأهل الرواية والدراية.

القسم الثاني: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقهًا في معانيه، ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحكم، والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه، وإعرابه، ولم يرزق فيه فهمًا خاصًّا عن الله، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: «إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه»[رواه الإمام البخاري (١١١) عن أبي جحيفة]. والناس متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله، أعظم تفاوت، فرب شخص يفهم من النص حكمًا

أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين.

فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه، وهذا يسقي منه، وهذا يزرع.

فهؤلاء القسمان هم السعداء، والأولون أرفع درجة وأعلى قدرًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه لا حفظًا ولا فهمًا ولا رواية ولا دراية، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعان، لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء.

والقسمان الأولان اشتركا في العلم والتعليم، كلٌّ بحسب ما قبله، ووصل إليه، فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه.

والقسم الثالث: لا علم له ولا تعليم، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء شر من الأنعام، وهم وقود النار.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم، وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله.

وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم، وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد.

وفيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث. اهـ المراد.